

التفسير المختصر - سورة الروم (٣٠) - الدرس (٢-٨) : تفسير الآية ٧ ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-١٠-١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الإخوة الكرام، الآية السابعة من سورة الروم وهي قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧)

[سورة الروم]

فَالله سبحانه وتعالى أثبت للكفار العلم بظاهر الحياة الدنيا، و لا أدل على ذلك من تقديم العلوم العصرية في العالم الغربي، فكل ما من شأنه أن ينفعهم في الدنيا، وأن يُمْتَنَعَ أجسادهم في الدنيا، تقوّفوا به أيّما تقوّف فهذا علم، ولكن الحياة الدنيا محدودة، والحياة الأبدية مُمتدّة فالذى يتعلم علماً متعلقاً بالحياة الدنيا ينتهي علمه عند الموت، والذي يتعلم علماً متعلقاً بالحياة الآخرة، ينتفع بهدا العلم إلى أبد الأبدية، فذلك شتان بين من يعلم فرعاً من فروع خلق الله ؛ مختص بالفيزياء والكيمياء والرياضيات، والفالك والحقوق الاقتصاد، وشتان بين من يعلم علم الشرع، والأفضل من هذا كليه أن يكون لك علم بالله، لأن هذا هو الذي يسمو بك لذلك قال بعض العارفين مساكين أهل الدنيا جاءوا إلى الدنيا، وخرجوا منها ولم يعرّفوا أجمل ما فيها، فمهما ارتقى الإنسان في العلوم المادية يبقى ذكياً وليس عاقلاً، فلا يسمى الإنسان عاقلاً إلا إذا عرف الله تعالى فما كل ذكي عاقل، ولكن كل عاقل ذكي، تجد أشخاصاً كثيرين متفوّفين في اختصاصاتهم ويحملون أعلى الدرجات ولا يصلون، وقد يأكلون أموال الناس بالباطل، وقد يبتزون أموالهم، ويتعاملون مع الناس وكان لهم للاء الناس لا رب لهم ولن يحاسبهم، وهم يملكون أعلى درجة علمية، فقد يطلب الطبيب من المريض أن يعمل عملية جراحية، وهذا المريض مستغن عن هذه العملية !! فقط من أجل أن يأخذ منه الطبيب أربعين ألف، وتجد هذا الطبيب يحمل أعلى درجة من أمريكا !! فضيّ أحمر، وهذا يعلم، فهل يسمى عاقلاً ؟ لا، هذا ذكي وليس عاقلاً، فالعالق من عرف الله، قال تعالى:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧)

[سورة الروم]

والعيّنة بمؤد الشيء، قال تعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَباءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣)

[سورة الفرقان]

هناك مُجَمَّع سِيَاحِي، وهناك مُهندسون وختصاصيين ومُهندس حَادِقٌ ومُهندس مِيَاه، وإنَّ هذَا المُجَمَّع كُلُّه يَقُومُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

أَحَدُ الْمَرَّاتِ افْتَتَحَ جَامِعٌ فِي الصَّبَورَةِ فَدَعَنَا إِلَى افْتِتَاحِهِ، وَأَنَا خَارِجٌ مِنْهُ فِي الضَّيْفَةِ الثَّانِيَةِ مُلْهِيًّا بِحَوْيِي كُلَّ الْمَوْبِقَاتِ، فَقَلَّتُ: سَبَّانُ اللَّهِ ! شَتَّانٌ بَيْنَ مَنْ بَيْنِي جَامِعًا، وَبَيْنَ مَنْ بَيْنِي مُلْهِيًّا، وَصَاحِبِي الْمَلْهِيِّ وَالْجَامِعِ سِيمُوتَانٌ، وَإِنَّ أَعْظَمَ الْأَعْمَالِ مَا يَسْتَمِرُ بَعْدَ وَفَاتِ صَاحِبِهِ وَإِنَّ أَخْطَرَهَا وَأَشْنَعَهَا مَا يَسْتَمِرُ بَعْدَ مَوْتِ صَاحِبِهِ، ثُمَّ أَخْبَرْتُ أَنَّ صَاحِبَ ذَلِكَ الْمَلْهِيَّ تُوفَّى بَعْدَ أَسْبُوعٍ ! فَهَذَا الْمَلْهِيُّ هُوَ فِي صَحِيفَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ !! وَكُلُّ مَوْبِقٍ يَرْتَكِبُهَا النَّاسُ فِي صَحِيفَتِهِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَّةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ))

[رواية الترمذى]

هناك أشياء برَّاقة ولكنَّ السَّمَّ فِيهَا، فَيُمْكِنُ لِمَحْلٍ راقٍ، وبِضَاعَتِهِ نِسَائِيَّةٌ، وَيَدْخُلُ عَلَى هَذَا الْمَحْلَّ نِسَاء كَاسِيَّاتٍ عَارِيَاتٍ مَائِلَاتٍ وَصَاحِبُ الْمَحْلِ يُمْتَنَعُ نَظَرُهُ بِتِلْكَ الْحَسَنَاتِ، وَتَجِدُ مَحْلًا آخَرَ، عَتِيقٌ وَضَجِيجٌ وَالْمَحْلُ لِبَيْعُ الْعَدْسِ وَالْحَمْصَ، وَلَكِنَّ لِيَسُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَشَتَّانٌ بَيْنَ الْمَكَانَيْنِ ! فَأَنْتَ يُمْكِنُ أَنْ تَرْتَاحَ لِفُنْدُقِ خَمْسَةِ نُجُومٍ، وَكُلَّ شَيْءٍ فِيهِ مُرْيِحٌ، وَلَكِنَّ فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَيُمْكِنُ لِفُنْدُقِ مَطْمُوسِ النُّجُومِ وَلَكِنَّ لِيَسُ فِيَهِ الْمَعْصِيَّةُ، فَالْعِبْرَةُ أَنْ يَتَجاوزَ الإِنْسَانُ الْمَظَاهِرَ، وَمَا دَامَ يَهْتَمُ بِالْمَظَاهِرِ فَهَذَا مُشْكِلَتُهُ مُشْكِلَةٌ، فَهُنَاكَ مَظَاهِرٌ تَنْتَهِي إِلَى النَّارِ، وَأَمَكْنَ خَشِنَّةٌ، فَالَّذِي دَخَلُهُ مَحْدُودٌ لَا يُسْمِحُ بِالزِّنَا، وَدَخَلُهُ حَلَالٌ، تَجِدُ بَيْتَهُ صَغِيرًا، وَطَعَامُهُ خَشِنًا، وَآخَرُ لَهُ دَخَلٌ غَيْرُ مَشْرُوعٍ، وَهَذَا الدَّخَلُ غَيْرُ الْمَشْرُوعِ يُسْمِحُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مَا لَذَّ وَطَابَ، وَيَرْتَدِي أَفْخَمَ الْأَلْبَاسَ الْمُسْتَوْرَدَةَ، فِيهِذِهِ الْعَيْنِ ؛ هَذَا الإِنْسَانُ يَعِيشُ حَيَاةً رَاقِيَّةً جَدًّا، وَذَاكَ يُقَالُ عَنْهُ مِسْكِينٌ، أَمَا عَنْهُ اللَّهُ تَعَالَى الْعَكْسُ، قَالَ تَعَالَى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١)

[سورة الواقعة]

قال عليه الصلاة والسلام:

((أَهْلًا بِمَنْ خَبَرْنِي جِبْرِيلُ بِقَدْوِهِ !))

فَقَدْ تَكُونُ مَرْتَبَتُكَ بِسِيَطَةٍ جَدًّا، مُؤَظَّفٌ بِسِيَطَةٍ بِزَاوِيَّةٍ مُهْمَلَةٍ فِي إِحْدَى الْوَزَارَاتِ أَوْ كَاتِبٌ أَوْ حَاجِبٌ، لَكِنَّ دَخَلَكَ مَشْرُوعٌ فَالْعِبْرَةُ الْأَبَدُ، حِينَما يُكَشِّفُ الْغِطَاءُ، فَإِذَا هَذَا الإِنْسَانُ الْفَقِيرُ الْمَغْمُورُ الَّذِي لَا يَعْرُفُهُ أَحَدٌ ؛ أَدَى الْصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَاتَّصَلَ بِاللَّهِ، وَخَدَمَ الْخَلْقَ، وَكَانَ عَفِيفًا، فَهَذَا الإِنْسَانُ سَيَغُدو مَلِكَ الدَّارِ الْآخِرَةِ.

أَيُّهَا الإِخْوَةُ، نَحْنُ الْآنُ فِي عَالَمِ الصُّورِ، وَعَالَمِ الصُّورِ فِيهِ زَيْفٌ كَبِيرٌ فَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ أَبَا تَرَكَ خَمْسَةَ مَلِيَّيْنَ، وَجَاءَ أَحَدُ الإِخْوَةِ الْكَبَارِ، وَأَخْذَ كُلَّ الْمَبْلَغِ، وَاشْتَرَى أَجْمَلَ بَيْتٍ، وَزَيْنَ الْبَيْتِ، وَجَعَلَ مَكَانَتِهِ لَهُ وَسْكِرِيتَارِيَا، وَبَقَيَّ الإِخْوَةُ الْأَرْبَعَةُ فَقَرَاءُ ! فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا زَارَ الْغَنِّيَّ وَرَأَى مَا

عنه من تُحَفَ، وأشياء نادرة، وزارَ الفقير فرأى بيته صغيراً وخشناً، فهذه العينُ مَاذا تُرِيكَ؟! تُرِيكَ أَنَّ الْغَنِيَّ أَقْرَبُ إِلَى الرَّفَاهَةِ مِنَ الْفَقِيرِ، وَلَكِنَّ الْعَقْلَ يُرِيكَ أَنَّ هَذَا الْمَحْرُومَ مِنْ إِرْثٍ وَالِدِهِ وَذَاكَ الْمُغْتَصِبُ مِنْ إِرْثٍ وَالِدِهِ؛ شَتَانٌ بَيْنَهُمَا ! إِسْلَامٌ يُلْقِي اللَّهَ وَاللَّهُ رَاضٍ عَنْهُ، وَالإِنْسَانُ الثَّانِي يُلْقِي اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ سَاخِطٌ !

فهذا الدرس، يَهُمُّنَا أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَجَاوزَ الْمَظَاهِرَ، فَقَدْ زَارَنِي شَخْصٌ لَهُ مَكْتُبٌ تِجَارِيٌّ، وَلَكِنَّ بِضَاعَتُهُ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ، وَهَدَفُهُ إِفْسَادُ الْأَخْلَاقِ، قَالَ لِي: أَنَا عَمَلِي قَذْرٌ ! وَوَاللَّهِ لَهُ مَكْتُبٌ يُكَلِّفُ الْمَلَائِكَةِ وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبَتُ إِلَى مُصْلِحَةِ مَرْكَبَةٍ ؛ رَجُلٌ مُخْلِصٌ وَمُسْتَقِيمٌ وَكَانَ يَوْمُ شِتَاءٍ فَانْبَطَحَ تَحْتَ الْمَرْكَبَةِ حَتَّى أَصْبَحَ لَوْنَهُ أَسْوَدَ حَتَّى صَلَحَ الْمَرْكَبَةَ وَأَخْذَ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا مَعْدُلاً، هَذَا هُوَ الْعَمَلُ النَّظِيفُ، أَمَّا بِالْعَيْنِ فَبِالْعَكْسِ، فَنَرِيدُ تَجاوزَ هَذِهِ الْعَيْنِ إِلَى عَيْنِ الْقَلْبِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[سورة الحج]

فَالإِنْسَانُ مَا دَامَ يَتَعَلَّقُ بِمَا تَرَاهُ عَيْنَهُ يَتَعَبُ قَلْبَهُ كَثِيرًا، فَدَخَلَ مَشْرُوعًا يُسَمِّحُ لَكَ أَنْ تَعِيشَ حَيَاةَ خَشْنَةَ أَفْضَلُ مِنْ دَخْلِ مَشْبُوهٍ تَعِيشُ لَهُ حَيَاةً مَشْبُوهَةً نَاعِمةً، أَلَا رَبُّ نَفْسٍ طَاعِمَةٌ نَاعِمةٌ فِي الدُّنْيَا جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَرَبُّ نَفْسٍ جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ فِي الدُّنْيَا طَاعِمَةٌ نَاعِمةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَالْعِبْرَةُ بِخَوَاتِيمِ الْأَعْمَالِ وَالْعَاقِبَةِ لِلْمُتَقْبِلِينَ، وَالْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ وَالنَّجَاحِ وَالْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ وَالذِكَاءِ إِذَا نَجَوْتَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَإِذَا وَصَلْتَ عَلَى الْجَنَّةِ بِسَلَامٍ، وَإِذَا كَانَ قَبْرُكَ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَهَذِهِ قِصَّةُ لِأَحَدِ الرِّجَالِ غَيْرِ الْمَنْضَبِطِينَ، كَانَ سَبَبُ إِيمَانِهِ أَنَّ صَدِيقًا لَهُ مِنَ الْأَثْرَيَاءِ، وَكَانَ يَعِيشُ أَنْوَاعَ النَّعِيمِ؛ أَرْبَعَ زَوْجَاتٍ وَأَرْبَعَ قُصُورًا، وَبِسَاتِينَ، فَهَذَا الصَّدِيقُ مَاتَ فَجَأَةً ثُمَّ قِيلَ أَنَّهُ مَاتَ مَسْمُومًا مِنْ إِحْدَى زَوْجَاتِهِ، فَفَتَحَ قَبْرُهُ، وَفَتَحَتْ مَعْدَتُهُ، وَأَخْدَتْ عَيْنَةً مِنْ مَعَدَّتِهِ لِلْتَّحْقِيقِ فِي الْمَوْضِعِ، فَصَدِيقُهُ هَذَا الْمُتَوَفِّى نَزَلَ إِلَى الْقَبْرِ، فَرَأَى مَنْتَرًا لَا يُحْتَمِلُ، فَقَدْ انْتَفَخَ الْمَيِّتُ، وَأَزْرَقَ، وَالْدُودُ عَلَيْهِ، وَرَائِحةً لَا تُقْبَلُ، فَانْدَهَشَ هَذَا الرِّجَلُ لِمَا رَأَهُ مِنْ حَالِ هَذَا الْثَّرِيِّ فِي الْقَبْرِ، وَبَعْدِ حِينٍ أَرَادُوا أَنْ يَدْفُونُ إِنْسَانًا فَوْقَ إِنْسَانٍ أَخْرَى فِي الْقَبْرِ، وَمَضَى عَلَى هَذَا الْمَيِّتِ فِي الْقَبْرِ أَرْبَعونَ عَامًا، فَتَوَقَّعَ النَّاسُ أَنَّهُ الْآنَ عِظَامٌ، فَإِذَا بِهِ لَمَّا يُفْتَحَ الْقَبْرُ، وَيُقْسِمُ بِاللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي رَأَى هَذَا الْمَنْتَظَرَ؛ الْجُنَاحُ كَمَا هِيَ، وَلَحْمُهُ كَمَا هُوَ، وَشَيْءٌ خَلَفَ الْمَأْلَوْفَ وَالْطَّبِيعَةِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ حُفَاظَ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَإِمَامًا فِي أَحَدِ الْمَسَاجِدِ الضَّخْمَةِ فِي دِمْشِقَ، فَهَذَا الْمَنْتَظَرُ أَخْذَا بِيَدِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

مَوْضِوْعَنَا فِي هَذَا الْدَّرْسِ؛ أَنَّ الْعَيْنَ غَرَّارَةٌ وَخَدَاعَةٌ، وَلَيْسَ كُلُّ بَيْتٍ جَمِيلٌ صَاحِبُهُ سَعِيدٌ، وَلَيْسَ كُلُّ كَوْخٍ حَقِيرٍ صَاحِبُهُ شَقِيقٌ، وَلَيْسَ كُلُّ دَخْلٍ كَبِيرٍ فِيهِ بَرَكَةٌ، وَلَيْسَ كُلُّ دَخْلٍ قَلِيلٍ مُرْعِجٍ، وَفَقَدْ يَكُونُ الدَّخْلُ الْقَلِيلُ الْحَالَ أَشْرَفُ وَأَقْرَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ دَخْلٍ كَبِيرٍ حَرَامٍ، وَقَدْ يَكُونُ إِنْسَانٌ مَرِيضٌ وَرَاضٌ عَنْ مَرْضِهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ إِنْسَانٍ كَالْحَصَانِ وَهُوَ بَطَرٌ، لَذَا نَحْنُ نُرِيدُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَرَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرِينَ مَدْفَوِعًا بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ، مَنْ هُوَ بِالْأَلْ

رضي الله عنه؟ صحابي وعبد حبشي، وقف بباب سيدنا عمر أبو سفيان زعيم قريش والشخصية الأولى في قريش، وطبعاً أبو سفيان أسلم بعد الفتح، فوقف بباب عمر ساعات طوال ولم يؤذن له، وبلال وصهيب يدخلان دون استئذان، فتألم أشد الألم، ولمّا دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين؟ سيد قريش يقف ببابك ساعات طوال، وصهيب وبلال يدخلان دون استئذان؟! فقال له عمر رضي الله عنه: وهل أنت مثلهما؟! ومن يصدق أن سيدنا عمر عملاق الإسلام يخرج من المدينة متوجهاً إلى ظاهريها لاستقبال سيدنا بلال؟ ومن يصدق أن شاباً عمره سبعة عشرة سنة يقود جيشاً فيهم أبو بكر وابن الخطاب وعثمان وعلي رضي الله عنهم! وسيدنا الصديق أراد أن يركّز مكانه أمام الصحابة، ومشى بركابه، فأسماء يركب الناقة كائنة جيش وخليفة المسلمين يمشي على ركبيه، فقال أسماء ولم يتحمل الموقف: يا خليفة رسول الله لتركتن أو لأنزلن، فقال له: والله لا ركتب ولا نزلتمنا على أن تغبر قدماي ساعة في سبيل الله، فلما أراد سيدنا الصديق أن يستتبقي سيدنا عمر بن الخطاب كمستشار له، لم يقل له: تعال يا عمر وابق معنا! ولكن توجه إلى أسماء قائداً الجيش، وقال: أناذن لي بعمر! سيدنا الصديق يستأذن أسماء في أن يُبقي له عمر! هذا هو الإسلام، ونحن نريد تجاوز المظاهر، وتجاوز المظاهر البراقة والخداعة، وإسلاماً حقيقياً، ولن ننصر وإسلامنا غير حقيقي أصبحت الآن العمرة كالحج؛ مملوءة واكتظاظ، وهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الن تُغلب أمتى من اثنى عشرة ألف من قلة...))

فما الجواب؟! قال تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَفْ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يُلْقَوْنَ غَيَّباً﴾ (٥٩)

[سورة مریم]

أيها الإخوة الكرام، العمر قصير، والوقت ثمين، الموت على الأبواب، ولا يستطيع أحد منّا ضمان ساعة، ومن عدّا من أجله فقد أساء صحبة الموت، والإنسان عليه أن يغادر والله قد عفى عنه والمظاهر لا تقدم ولا تؤخر، والله عز وجل أثبت لهؤلاء الكفار أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

والحمد لله رب العالمين